الفصل الرابع

المنشـــآت الدارســـة

الاستحكامات الحربية والعمائر الدينية

يحدثنا اليعقوبى عن استحكامات المدينة الحربية فى العصر العباسى فيقول «وهى مدينة على سور وأبواب حديد وخندق، أمر ببناء السور المتوكل على الله»[١]، والواقع أن إحكام استحكامات المدينة الحربية خلال تلك الفترة قد ارتبط إرتباطا وثيقا بتعرضها لهجوم الروم شأنها فى ذلك شأن الثغور المصرية التى شهدت هى الأخرى إزدهاراً كبيراً فى منشآتها الحربية فى ذات الفترة عقب احتلال دمياط[٢] فى عام ٢٣٨هـ/ ٨٥٣م، حيث شيد الخليفة العباسى المتوكل على الله حصنا بها فى عام ٢٣٩ هـ/ ٨٥٣م، كما شيد حصنين آخرين فى الفرما[٣] وتنيس[٤]، وفى ذلك قال المقريزى «وانفق فيه وفى حصن دمياط والفرما ما لا عظيما»[٥]، وقد كشفت الحفائر الأثرية[٦] التى أجريت بالمدينة عن آثار هذه الاستحكامات الحربية العباسية من أسوار وخنادق وقلعة عثمانية[٧]، حيث تظهر فى مناطق مختلفة من المدينة. (شكل ١)

هذا فيما يتعلق بالعمارة الحربية فى مدينة برقة، أما فيما يتعلق بالعمارة الدينية فتدل الحفائر الأثرية التى تقدم ذكرها على أن موقع المسجد الجامع القديم الذى يرجع فى إعتقادى إلى عهد عمرو بن العاص كان داخل أسوار المدينة الأثرية فى المساحة الممتدة من موقع المخطوطات المكتشفة إلى موقع الزاوية السنوسية، حيث كان من الطبيعى أن يشيد عمرو بن العاص مسجدا جامعاً بالمدينة ومساجد أخرى تؤدى فيها الصلوات غير الجامعة على غرار منشآته الدينية فى حاضرة مصر مدينة الفسطاط، خاصة وأن التجانى يذكر لنا مسجدين شيدهما عمرو بن العاص بطرابلس، يقع أحدهما فى الموضع[٨] الذى يقوم عليه حاليا مسجد أحمد باشا القرمانللى ١١٥٠ هـ/ ١٧٣٧ - ١٧٣٨م (شكل ٣) بما نصه «ويقابل باب الستارة

المتقدم الذكر المعروف بباب عبد الله من السور القديم باب يعرف بباب هوارة. . وبين يديه من داخل المدينة بطحاء متسعة يعرفونها بموقف الغنم. . وهنالك مسجد ينسب بناؤه إلى عمرو بن العاص رحمه الله»[٩]، ويقع الآخر بمدينة جنزور إحدى ضواحى طرابلس بما نصه «فحللنا بمنزل زنزور، فرأيت غابة متسعة الأقطار ملتفة الأشجار وبها مياه عذبة وأكثر شجرها الزيتون. . وبها مع ذلك نخل كثير. . وبها أيضا من شجر التفاح والرمان والعنب والتين كثير، وهى كثيرة القصور. . وبها جامع متسع للخطبة يذكر أن عمرو بن العاص، رحمه الله، أسسه»[١٠]، كما أشار الحميرى[١١]. إلى مسجد شيده عقبة بن نافع بجبل نفوسة[١٢]، كذلك تضم مدينة غدامس[١٣] مسجدا[١٤] ينسب إلى القائد عقبة بن نافع. (شكل ٤)

مسجد أحمد باشا القرمانللى ١١٥٠ هـ/١٧٣٧ - ١٧٣٨م

جاء فى الموسوعة الأثرية الليبية (الجزء الأول) فيما يتعلق بالموقع والتاريخ يعد هذا الجامع من أكبر جوامع طرابلس الغرب وأغناها زخرفة، شيده أحمد باشا القرمانللى مؤسس الأسرة القرمانللية فى طرابلس الغرب فى عام ١١٥٠ هـ/ ١٧٣٧ - ١٧٣٨م، وقد شيد هذا المسجد على انقاض مسجد عمرو بن العاص الذى تقدم ذكره، ويقع فى مواجهة السراى الحمراء فى الجهة الجنوبية الغربية منها، وقد الحق به مدرسة، ويضم ضريحا، وتبلغ المساحة الكلية له ٢٥٥٢ مترا مربعا. (شكل ٣)

يشتمل المسجد كما يتضح من المسقط الأفقى على بيت للصلاة تبلغ مساحته ٤٠٠ مترا مربعا، ويتوسط بيت الصلاة الجامع تقريبا، تغطيه القباب الضحلة، وهى مقامة على مثلثات كروية تكسوها زخارف جصية تنوعت ما بين أشكال هندسية ونباتية، وهى عبارة عن خمس وعشرين قبة، ويشتمل المسجد على محراب رخامى مجوف يكتنفه عمودان من الرخام الأبيض، ويزدان المحراب ببلاطات من القاشانى تزدان بدورها بزخارف نباتية، ويعلو البلاطات شريط من الكتابة الكوفية البارزة تمثل آية قرآنية نقشت على الجص، يحيط بالمحراب إطار من بلاطات القاشانى.

ويشتمل المسجد على منبر مصنوع من الرخام الأبيض، كما يشتمل على مئذنة مثمنة، وتعلوها شرفة، ويعلو الشرفة بدن قصير يتوصل منه إلى أرضية الشرفة، ثم تنتهى المئذنة بقمة مخروطية من الخشب.

جامع وضريح عقبة بغدامس (شكل ٤)

جاء فى الموسوعة الأثرية الليبية (الجزء الثانى) أن هذا الجامع يقع بشارع أولاد بالليل بمدينة غدامس، وهو عبارة عن ساحة مستطيلة مكشوفة - يبلغ مقاييسها ٦٠ر٣١ X ١٥ر١٨م، ولم يتبق من معالم الجامع القديم سوى المحراب وأجزاء من أبدان اعمدة حجرية صغيرة، ويقع المحراب الأصلى فى الركن الشرقى من الجدار الجنوبى، وهو عبارة عن تجويف يبلغ عمقه ٥٠ر١م، وإتساعه ٨٠سم، يتوجه عقد حدوي يرتكز على عمودين يكتنفان جانبى المحراب، يعلو الأيمن منهما تاج يزدان بزخارف نباتية محورة، وإلى يمين المحراب جزء من الجدار القديم يشتمل فى أسفله على إرتداد حائطى قليل العمق ٢٠سم يتوجه عقد نصف دائرى، بينما القسم العلوى منه يشتمل على خمس طاقات نافذة صغيرة، وإلي الغرب من المحراب القديم أوجد المعمار دخلتين معقودتين أكثر ارتفاعا من المحراب الأول ولكنهما أقل عمقا، فيبلغ عمق تجويف الأولى إلى اليسار ٩٠سم، بينما الثانية ٦٠سم، وقد جاءت عقودهما على هيئة حدوية، وتستخدم الحنية اليمنى كمنبر من درجتين، وهاتان الحنيتان أحدث عهدا من المحراب الأصلى، ويوجد على بعد حوالى ٥٠ر٢م من جدار القبلة أجزاء صغيرة من بدن عمودين، تبلغ المسافة بينهما ٥٠ر٥م، بينما المسافة بين العمود الأول والجدار الشرقى الحالى ٤م. وترجح الموسوعة أن جدار القبلة كان ممتدا إلى ناحية الشرق، وان طول جدار القبلة كان حوالى ١٦م، اذان المحراب الأصلي، والذى يقع فى الركن الشرقى من الجدار الجنوبى الغربى، لابد وأنه كان ينتصف جدار القبلة كما هو مألوف، يؤيد ذلك أنه عندما صار إمتداد جدار القبلة إلى الناحية الغربية أضيف محراب آخر فى منتصف هذا الجدار.

ويعد ما تبقى من جامع عقبة أقدم الآثار الإسلامية بمدينة غدامس، أما الضريح فيقع عند إمتداد كل من الجدار الجنوبى الغربى والشمالى الغربى للجامع، يشغل مساحة شبه مربعة، حيث يبلغ طول كل من الجدار الشمالى والجنوبى ٤م، بينما يبلغ كل من الجدار الشرقى والغربى ٥٠ر٣م، وذلك من الخارج، أما من الداخل فيبلغ طول كل من الجدار الشمالى والجنوبى ٣م، بينما كل من الجدار الشرقى والغربى ٦٠ر٢م، ويتوصل إلى داخله من خلال فتحة باب فى الجانب الجنوبى الشرقى مقاييسها ٢٥ر١ X ٦٣سم، يتوجها عقد مستقيم.

ويغطى الضريح قبة مقامة على مثلثات مقلوبة، وتشتمل القبة على رقبة دائرية، أما القبة فذات قطاع مدبب قليلا.

وقد اختلف حول نسبة هذا الضريح فالبعض ينسبه إلى القائد عقبة بن نافع، والبعض ينسبه إلى عقبة بن عامر الفهرى، وهناك أبو مسعود عقبة البدرى، وترجح الموسوعة أنه لأبى مسعود عقبة بن رافع الذى توفى بأفريقيا، حيث أن عقبة بن نافع توفى فى تهودة على يد كسيلة زعيم البربر وقبره هناك، وأقيم هناك أيضا جامع يعرف بجامع عقبة، أما عقبة بن عامر فقد توفى بمصر ودفن بها، وتضيف الموسوعة أن الضريح الحالى لايرجع إلى هذه الفترة المبكرة، بل هو أحدث عهدا.

ضريح الصحابى رويفع بن ثابت الأنصارى

هو الصحابى رويفع بن ثابت بن سكن بن عدى بن حارثه الأنصارى، من بنى مالك بن النجار، سكن منطقة الجناب فى نواحى المدينة المنورة، ومنذ أن أسلم وهب نفسه للجهاد، والدعوة إلى الإسلام فى شبه الجزيرة العربية، والشام، ومصر، وأفريقية، فقد جاهد تحت امرة الرسول صلى الله عليه وسلم فى معركتى خيبر وحنين، كما كان ضمن الصحابة الذين دخلوا مصر ضمن جيش القائد عمرو بن العاص، وكان هذا الجيش هو الذى فتح بلاد الشام، ثم استطاع فتح مصر فى عام ٢١هـ/ ٦٤٢م، قال ابن عبد الحكم عند ذكره من اختط حول

المسجد الجامع مع عمرو بن العاص، «واختط رويفع بن ثبت وعقبة بن كريم الأنصاريان. . واختط رويفع بن ثابت الانصارى أيضا الدار التى صارت لبنى الصمة. وتوفى رويفع بن ثابت ببرقة وكان قد وليها»[١٥].

وكان الصحابى رويفع بن ثابت فى طليعة جيوش الفتح فى أفريقية، ثم ولاه والى مصر مسلمة بن مخلد الأنصارى أسفل الأرض، وهى المنطقة الواقعة بين الفسطاط والإسكندرية، ثم سار صحبة معاوية بن حديج لفتح أفريقية فى عام ٤٥ هـ/ ٦٦٥م، وفى هذه الحملة ولى رويفع بن ثابت طرابلس الغرب فأشرف على الحملة البحرية لغزو صقلية، ثم تم تكليفه من قبل معاوية بن حديج بغزو جزيرة جربه، وتم له النصر، ومن ثم قام بتنظيم شئونها وجعلها تابعة لطرابلس الغرب، ثم اضطر نتيجة اضطراب الأحوال السياسية إلى العودة لبرقة فى إنتظار حملة جديدة لفتح باقى أجزاء أفريقية، وظل بها حتى توفى[١٦].

أشارت المصادر التاريخية ونصوص الجغرافيين والرحالة المسلمين فى العصور الوسطي إلى ضريح للصحابى رويفع بن ثابت بمدينة برقة (المرج حاليا)، حيث أورد المؤرخ ابن عبدالحكم فى أول إشارة لمكان دفنه ما نصه «وتوفى رويفع بن ثابت ببرقة وكان قد وليها»[١٧]، ويتفق ما أورده البكرى فى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى ونصه «وبمدينة برقة قبر رويفع صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم»[١٨]. وما ورد على لسان ابن عبد الحكم، كما يتفق ما أورده ياقوت الحموى فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ونصه «وفى مدينة برقة قبر رويفع صاحب النبى صلى الله عليه وسلم»[١٩]. وما ورد فى روايتى ابن عبدالحكم والبكرى، ويشير التجانى فى رحلته إلى موضعين أحدهما مدينة برقة، والآخر الشام بما نصه عند ذكره جزيرة جربة «وأول من أفتتح هذه الجزيرة (جربة) فى أول الإسلام رويفع بن ثابت بن سكن بن عدى بن حارثة الأنصارى من بنى مالك بن النجار وهو من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم وممن سكن مصر منهم، وكان معاوية امره على طرابلس وذلك سنة ست وأربعين فغزا منها أفريقية سنة سبع وأربعين ووصل إلى جربة فأفتتحها ثم رجع

من عامه فمات فى برقة وقبره بها، ويقال بل مات بالشام»[٢٠]، ويعد التجانى أول من أشار إلى إحتمال دفنه ببلاد الشام، حيث أجمعت كافة الروايات التاريخية قبله أنه توفى ببرقة، ويتطابق ما أورده ابن الأثير[٢١] فى أسد الغابة وما ذكره التجانى فى رحلته، ويشير الحشائشى فى رحلته إلي وفاته بمدينة المرج (برقة قديما) بما نصه «وهناك مكان يقال له المرج . . به أسواق وبناءات وهو فى غاية الخصب. . وبه قبر سيدنا رويفع بن ثابت الصحابى رضى الله عنه»[٢٢].

مما تقدم يتضح أن كافة الروايات التاريخية سواء فى المصادر التاريخية أو كتب الرحالة أو كتابات الجغرافيين تنص على وفاة الصحابى رويفع بن ثابت ودفنه بمدينة برقة، غير أن هناك رواية[٢٣] أخرى يتناقلها كبار السن من سكان مدينة البيضاء وما حولها، وتروى عن طريق التواتر تقول : أنه دفن بالبيضاء، حيث تذكر الرواية أن القبر اندثر بالبيضاء إلى أن قدم شخص من بلاد المغرب يسمى محمد بن عياد الشريف واستقر بنواحى مدينة البيضاء، راغبا فى تعليم الصغار القرآن الكريم فتحمس له شخص يدعى سليمان بو مقطوعة، حيث تكفل برعاية الشيخ، وذات يوم عثر الشيخ على حجر مكتوب عليه «هذا قبر رويفع بن ثابت الأنصارى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام بإشهاره. ورغب فى بناء مقام عليه، وتكفل سليمان بعملية البناء وعرف بسليمان بوموصوله، والواقع فان مدينة البيضاء تشتمل على هذا الضريح الحديث البناء (شكل ٥)، ويحتفظ متحف الآثار بمدينة البيضاء بأربع صور لهذا الضريح. (لوحات ١-٣)

❑ ❑ ❑

هوامش الفصل الرابع

(١) د. محمد يوسف نجم، د. إحسان عباس : ليبيا، ص ٨٧.

(٢) دمياط : جاء تشييد حصن دمياط عندما ملك الروم المدينة وقتلوا بها جمعا كثيرا من المسلمين فى عام ٢٣٨ هـ/ ٨٥٢م، حيث قام الخليفة العباسى المتوكل على الله بتشييد هذا الحصن فى عام ٢٣٩ هـ/ ٨٥٣م، وقد بنى بالحجر.

د. عبد الله كامل موسى عبده : الاستحكامات الحربية بالثغور المصرية فى عصر الحروب الصليبية، مجلة كلية الآداب بقنا، جامعة جنوب الوادى، العدد الرابع، ١٩٩٥م، ص ٢٤٨.

(٣) الفرما : شيد الخليفة المتوكل على الله العباسى أيضا حصنا بمدينة الفرما تولى الإشراف عليه والى مصر عنبسة بن اسحاق فى نفس عام بناء حصن دمياط حتى يحمى المدينة من هجوم الروم بعد الفظائع التى ارتكبها الروم فى دمياط، وهو الأمر الذى يتضح جليا فيما قاله يحيى بن الفضيل من شعر للخليفة المتوكل.

فلا تنسنا أنا بديار مضيعة　　بمصر وأن الدين قد كاد يذهب

د. عبد الله كامل موسى عبده : الاستحكامات الحربية، ص ٢٤٨.

(٤) تنيس : ظلت مدينة تنيس بدون سور يحميها حتى عام ٢٣٠ هـ/ ٨٤٤م عندما شرع والى مصر عيسى بن منصور فى خلافة الواثق بن المعتصم فى تشييد سورها، وكان الفراغ من عمارته فى عام ٢٣٩/ ٨٥٣م فى ولاية عنبسة بن اسحاق. مزيد من التفاصيل انظر :

د. عبد الله كامل موسى عبده : الاستحكامات الحربية، ص ٢٤٩.

(٥) المقريزى : (تقى الدين أبى العباسي أحمد بن على) ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١م : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م، جـ١، ص ١٨٠.

(٦) Abdussaid, Abdul Hamid : Barqa Modern El-Merj, Estrattoda "Libya Antiqua", Vol. VIII, 1971, The Department of Anntiquities - Tripoli, P. 126.

(٧) قلعة مدينة المرج : تعد هذه القلعة إحدى القلاع الحصينة التى شيدها العثمانيون خلال العصر العثمانى الثانى (١١٢٣ - ١٣٢٩ هـ / ١٧١١ - ١٩١١م)، فى المنطقة الشرقية من ليبيا، فقد شيدوا قلاعا فى مدن درنة والمرج وتوكرة والقيقب وبنغازى، وقد إندثرت قلعة المرج عقب زلزال عام ١٣٨٣ هـ/١٩٦٣م، وقد أثبتت الحفائر الأثرية موقعها وحددت بعض معالمها.

Abdussaid, A.: Barqa, p. 126.

(٨) اتورى روسى : ليبيا، ص ١٢٢ . ، شارل فيرو : الحوليات الليبية منذ الفتح العربى حتى الغزو الايطالى، ترجمة محمد عبدالكريم الوافى، منشورات جامعة قار يونس، بنغازى، الطبعة الثالثة، ١٩٩٤م، ص ٥٣ .

(٩) التجانى (أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد) : رحلة التجانى (تونس - طرابلس ٧٠٦/٧٠٨ هـ)، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس ١٩٨١م، ص ٢٤٥ .

(١٠) التجانى : رحلة ، ص ص ٢١٤ - ٢١٥ .

(١١) الحميرى : الروض، ص ص ٤٧ - ٤٨ .

(١٢) جبل نفوسة : بالفتح ثم الضم والسكون وسين مهملة جبال فى المغرب، وهو مدينة قديمة صغيرة حولها عمارات وطوائف من قبائل البربر، وبها جامع وسوق، غزاها عقبة بن نافع، وليس فى جميع البلاد أطيب هواء منها ولا أجمل منظرا ولا أكثر أنهارا وأشجارا وثمارا.
ياقوت الحموى : معجم البلدان، مج٤، ص ص ٨٠٠ - ٨٠١، الحميرى : الروض، ص ٥٧٨ .

(١٣) غدامس : بعد ما تبقى من جامع عقبة بن نافع بمدينة غدامس أقدم الآثار الإسلامية بها، ويتمثل ما تبقى فى المحراب وأجزاء من ابدان أعمدة حجرية صغيرة، وتقع المدينة فى وسط الجانب الغربى من ليبيا، وتعد واحدة من أهم مراكز الحضارة الليبية على مر العصور، وقد قدر لها أن تكون محط أنظار الغزاة منذ غزوة القرطاجنيين، حيث توالت عليها الحملات حتى نهاية العصر العثمانى، وتتميز المدينة فى العصر الإسلامى بإشتمالها على العديد من المنشآت التى تنوعت ما بين جوامع ومساجد

وزوايا، ويبلغ عدد المساجد بها أحد عشر مسجدا.

د. على مسعود البلوشى وآخرون : موسوعة الآثار الإسلامية فى ليبيا، أمانة التعليم، مصلحة الآثار، ليبيا، جـ٢، ص ص ٦٧ - ٧٣.

(١٤) د. على مسعود : موسوعة الآثار، جـ٢، ص ٧٢ - ٧٣.

(١٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر، ص ص ١٠٩ - ١١٠.، مزيد من التفاصيل انظر : د. محمد حسين المرتضى : طلائع الفتح الإسلامى فى ليبيا وجها د زهير البلوى ورويفع الأنصارى، البيضاء، ١٩٩٢م، ص ص ١٣٥ - ١٦٠.

(١٦) د. محمد حسين المرتضى : طلائع الفتح، ص ص ١٤٤ - ١٥٠.

(١٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر، ص ١١٠.

(١٨) البكرى : المسالك، جـ٢، ص ٦٥٠.

(١٩) ياقوت الحموى : معجم البلدان، مج١، ص ٣٨٨.

(٢٠) التجانى : رحلة، ص ١٢٤.

(٢١) ابن الأثير (عز الدين أبى الحسن بن أبى الكرم) ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣م : أسد الغابة فى معرفة الصحابة، دار الشعب، مج٢، ص ٢٤٠.

(٢٢) الحشائشى : رحلة، ص ص ١٩٦ - ١٩٧.

(٢٣) محمد حسين المرتضى : طلائع الفتح، ص ١٦١.

❑ ❑ ❑